

تاريخ سوريا الكبرى منذ الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٩م حتى العصر الحالي.

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خير المرسلين

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً أنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً

سأتناول بالمصادر والوثائق العربية والأجنبية في هذه السلسلة المطروحة تاريخ سوريا (بلاد الشام) منذ انقلاب الاتحاديين بدعم من الماسونية العالمية على آخر الخلفاء الفعليين للخلافة العثمانية السلطان عبد الحميد الثاني، وماحدث عقبها من كوارث وويلات جرّت على هذه الأمة وخاصة بلاد الشام إلى عصرنا الحالي المؤلم والمستبشر بالعثمانيين الجدد، وعودة الخلافة الإسلامية مرة أخرى بإذن الله تعالى، وهذا دليل على حيوية الأمة التي تعرضت لعدة نكبات ونكسات، ولكن ما من كبوة تعرضت لها إلا نهضت نهوض الأسد من عرينه لتعيد سيرتها ومجدها الأول.

سأتناول في المبحث الأول من الجزء الأول من هذا البحث: التآمر الدولي على الخلافة العثمانية في عصر الرجل المريض منذ ١٨٥٣ (لقاء سان بطرسبورغ) وحتى قيام الحرب العالمية الأولى والذي عرف بالمسألة الشرقية.

وأما المبحث الثاني فسأتكلم فيه عن إرهابات الحرب العالمية الأولى ودخول العثمانيين الحرب إلى جانب كل من الألمان والبلغار والنمساويين وأحداثها فيما يتعلق بالمشرق العربي.

أسأل الله تعالى السداد في الأمر، وهو ولي التوفيق.

المسألة الشرقية والحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

وانعكاسها على المشرق العربي

المبحث الأول:

المسألة الشرقية:

يعرف المرحوم مصطفى كمال باشا المسألة الشرقية بقوله: "اتفق الكتاب والسياسيون على أن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية [العثمانية] بشأن البلاد الواقعة تحت سلطتها، وبعبارة أخرى هي: مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا. وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام، أي: مسألة حروب صليبية منقطعة بين الدول القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية. إلا أن هذا التصريح [ليس صحيحاً بالمطلق]، لأن الدول التي تتنازع الدولة العلية وجودها لاتعاديها باسم الدين فقط بل الغالب تعاديها طمعاً في نوال شيء من أملاكها"^(١).

ويميل عددٌ غير قليل من علماء التاريخ إلى أن مصطلح "المسألة الشرقية"، جاء من مؤتمر "فيرونا"^(٢) (Verona) في إيطاليا سنة ١٨٢٢، ليشمل المشكلات الدولية المعنية بإضعاف الدولة العثمانية. وتزامن هذا المصطلح مع حرب البلقان^(٣) والقرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦)^(٤)، والتي تمخض عنها استقلال اليونان عام ١٨٦٢.

وقد كانت المسألة الشرقية والأطماع الاستعمارية، سبباً لمعظم المشكلات التي وقعت في العالم، من القرن السادس عشر إلى اليوم، وبلغت أقصى شدتها لأول مرة في التاريخ، بعد انهزام العثمانيين لأول مرة في معركة "كالنبرج" سنة ١٦٥٨ أمام

(١) كامل مصطفى: المسألة الشرقية، مطبعة الآداب، مصر، ط ١، ١٨٩٨، ص ٤.

(٢) زين، زين نور الدين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، دار النهار، بيروت، ط ٣، دت، ص ٢٢.

(٣) السمك، عبد الكريم إبراهيم: "المؤرخ والصحفي أمين سعيد وصلته بالملك فيصل" (مجلة الفيصل، العدد ٣١٥، نوفمبر/ديسمبر ٢٠٠٢م)، الرياض، ص ١٠٨.

(٤) وهذه هي الحرب البلقانية الأولى، ووقعت بسبب تدخل روسيا بأمر البلقان والأماكن المقدسة وقيام حلف ضدها قادته كل من بريطانيا وفرنسا حيث انتصرنا على الروس في حرب القرم. فريد بك المحامي، محمد: تاريخ الدولة العثمانية العلية، دد، القاهرة، ط ١، ١٨٩٦، ص ٢٧٨.

الدول الأوروبية، وإبرام "المحالفه المقدسة" لتلك الدول، والتي أسفرت تلك المحالفه عن حروب عديدة مع الدولة العثمانية، انتهت بمعاهدتي كارلوفيتز (سنة ١٦٩٩)، وباساروفيتز (سنة ١٧١٨)، اللتين جلا العثمانيون بمقتضاها عن هنغاريا وترنسلفانيا وبوداليا وقسم آخر من صربيا.

ولم تكتف دول "المحالفه المقدسة" بضمّ البلاد المترامية الأطراف إلى أملاكها، بل رأت بأنّ الوقت قد حان، للقضاء على الدولة العثمانية قضاءً مُبرماً. فاتّقت على تقسيمها، وكادت تتجح في تحقيق آمالها، لولا مداخلة فرنسا في الأمر ونجاح المركز "دي فيليب" (D. Philip)، سفيرها في الأستانة، في إبرام معاهدة بلغراد، على ما يوافق مصلحة الدولة العثمانية^(١).

لقد استطاعت دول الغرب الأوربي بعد نجاحها في استقلال اليونان عن الدولة العثمانية، أن تنقل أزمة الصراع إلى المشرق العربي بقصد إضعاف الدولة العثمانية من خلال إثارة النعرات الطائفية في بلاد الشام خاصّة^(٢)، وقد تحقّق ما أرادوه بفتنة أحداث عام ١٨٦٠^(٣)، وما ترتّب عليها من قيام متصرفية جبل لبنان، وذلك بموجب اتفاق دولي^(٤).

في ظلّ هذا الواقع دأبت روسيا في الوصول إلى المياه الدافئة (البحر المتوسط)، وأمام ذلك ذهبت قوى الغرب^(٥) وخاصّة بريطانيا^(٦) إلى الحيلولة دون وصولها إلى

(١) داغر، أسعد: ثورة العرب ضدّ الأتراك (مقدّماتها- أسبابها - نتائجها)، تحقيق عصام شبارو، دار التضامن، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص ٢٧-٢٨.

(٢) السمك: مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٣) إنّ أحداث سنة ١٨٦٠ هي نهاية لامتداد صراع دام عشرين سنة بدأ سنة (١٨٤٠) وكان هذا الصراع نتيجة طبيعية للتدخل الأوربي في شؤون بلاد الشام، لكلّ من الدول التالية: (فرنسا، بريطانيا، بروسيا، النمسا)، وبعد نجاح التجربة الأوربية في بلاد القرم و البلقان، فقد جاءت أحداث لبنان، والتي انتقلت شرارتها إلى دمشق، و التي عرفت في دمشق بـ (طوشة النصارى) و دفع فيها المسلمون و النصارى ضريبة واحدة نتيجة للتدخل الأوربي المباشر في سوريا في تلك المدة، كان نتيجتها رسم الخارطة السياسية و الجغرافية لهذه المنطقة، بعد أن اقتطعت منطقة جبل لبنان من بلاد الشام ليتشكل لها أول كيان سياسي منفصل، على شكل نظام عرف بنظام المتصرفية. سعيد، أمين: سيرتي ومذكراتي السياسية، تحقيق عبد الكريم إبراهيم السمك، ط ١، د، د، م، ٢٠٠٤، ج ١، ص ٤١.

(٤) في عام (١٨٦٠) وبعد وقوع مذبحة أهلية بين النصارى والدروز في بلدة دير القمر وفي مناطق أخرى في جبل لبنان، تدخلت الدول الأوربية وخاصّة فرنسا، ووقّعت اتفاقاً مع الدولة العثمانية على منح جبل لبنان استقلالاً داخلياً واسع النطاق. و الدول الموقّعة على الاتفاق هي كلّ فرنسا و روسيا و بريطانيا و النمسا و بروسيا (ألمانيا) سعيد، أمين: سيرتي و مذكراتي السياسية، المصدر السابق، ص ٤٢-٤٣.

(٥) السمك: مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٦) برو، توفيق: العرب الترك في العهد الدستوري ١٩٠٨-١٩١٤، دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٦٤.

غايتها، وخير من ساند الدولة العثمانية هو بريطانيا، بقصد صرف روسيا عن غايتها وأهدافها.

وهذا ما دفع روسيا مُمثلة بقيصرها "نيقولا" الأول (Niquilas) إلى زيارة السفير البريطاني السير "جورج هاملتون سيمور" (G. Simor) في العاصمة القيصرية سان بطرسبرغ، بتاريخ التاسع و الرابع عشر من شهر يناير سنة ١٨٥٣، وفي أثناء الاجتماع الأوّل استعمل القيصر نيقولا العبارة الآتية: "الرجل المريض" لأوّل مرّة، وذلك عندما قال: "افتراض أنّ لدينا رجلاً مريضاً، و إنّني أصارحكم القول إنّّه إذا أفلت من بين أيدينا يوماً فإنّ الأمر ينقلب إلى كارثة لاسيّما قبل أن نكون قد أخذنا جميع الاحتياطات" و إلى هذا اللقاء يعود تاريخ ميلاد مصطلح (رجل أوروبا المريض)^(١).

لقد خاضت الدولة العثمانية حرب طرابلس الغرب ١٩١١ ضدّ الغزو الإيطالي لها، وخسرتها. ثمّ خاضت الحرب البلقانية الثانية ١٩١٢ - ١٩١٣^(٢)، مُكرّمة من دون أن تستعدّ لها، أو أن تأخذ أهبتها، و خصوصاً بعد سياسة الاتحاديين العثمانيين ضدّ العناصر الأخرى من الشعب، و نُضوب الخزينة، و فراغ الثكنات العسكرية، بالإضافة إلى عوامل أخرى أسهمت في انكسار الدولة و تقدّم البلقانيّون حتى مشارف اسطنبول. هذا الانكسار حرّك الكوامن، وبرزت مطامع الدول الأجنبية إلى العيان، فلأوّل مرّة يسمّع السوريون خطاب وزير الخارجية الفرنسي^(٣) في ٢٤ ديسمبر ١٩١٢^(٤) في مجلس الشيوخ يقول: "إنّ لنا في سوريا ولبنان مصالح تقليدية نريد أن نجعلها مُحترمة، ويسرّني أنّي أستطيع أن أضيف إلى ذلك بأنّ الظنّ بوجود

(١) السمك: مرجع سابق، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) سعيد، أمين: سيرتي ومذكراتي السياسية، مصدر سابق، ص ٣١. في يوم (٨ أكتوبر ١٩١٢) أعلنت دول البلقان الأربع (بلغاريا و اليونان و الصرب و الجبل الأسود) الحرب على الدولة العثمانية، و دخل العثمانيون الحرب دون استعداد لها، و انتصر البلقانيون فيها انتصاراً ساحقاً، حتى بلغوا ضواحي الأستانة و استولوا على سلانيك و حاصروا أدرنة، و عندها وقّعت الدولة العثمانية الهدنة في (٣ ديسمبر ١٩١٢)، و عندما عاد أنور باشا من طرابلس الغرب جدّد الحرب ضدّ البلقانيين، و قد استفاد الأتراك من الخلاف بين دول البلقان، فاستردّوا أدرنة و بعض القلاع الأخرى، و قد برز في هذه الحرب (مصطفى كمال باشا). سعيد، أمين: سيرتي ومذكراتي السياسية المصدر السابق، الحاشية، ص ٣٤.

(٣) المسيو بوانكاريه. سعيد، أمين: الثورة العربية الكبرى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٢، دت، ج ١، ص ١٦١.

(٤) سلطان، علي: تاريخ سورية / ١٩٠٨ - ١٩١٨، نهاية الحكم العثماني، دار طلاس، دمشق، ص ٢٤٤.

خلاف على هذا الأمر بيننا وبين الحكومة البريطانية لا مبرر له، فقد صرّحت لنا بمنتهى الودّ أنّه ليس لها في تلك الأقطار غرض في عمل ولا مقاصد تنويها ولا أمانيّ سياسيّة ترغب فيها من أيّ نوع كان^(١).

لم يكن لبريطانيا علاقات ثقافية في العراق مشابهة لعلاقات فرنسا بسوريا، بل كانت لديها مصالح في التجارة النهريّة فقط، ولكن إضافة مساحة كبيرة من كردستان، وأيضاً جماعة الآشوريين المشردين، خلقنا أقليّات، مثل الأقليّات المسيحية في سوريا ولبنان، كانت أكثر من الأغلبية العربيّة تقريباً للبريطانيين بسبب قيامها بدور الحماية لها^(٢).

ثمّ أتى انتصار البلقانيين في الحرب (البلقانية) الثانية ليعتد المسألة الشرقية من رقادها، فأيقنت الدّول الغربيّة أنّ زمن اقتسام الرجل المريض قد أتى، وكانت تلك الدول هي "روسيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا". فدارت محادثات موسّعة بين وزراء خارجيتها لتقاسم المنطقة، وجاءت على الشكل الآتي: كان مطالب بريطانيا أن يكون العراق منطقة نفوذ لها، ومطالب فرنسا أن تكون سوريا الطبيعيّة منطقة نفوذ لها، ومطالب روسيا على أن تكون اسطنبول وولايات الأناضول الشرقي من نصيبها، ومطالب إيطاليا على أن تكون لها أزمير وشواطئ الأناضول الغربيّة^(٣).

تلك هي خصوصيّة المكان للمشرق العربي الذي ارتبط به استراتيجياً بالقوى الدوليّة في مصالحتها في موقع يُمثّل ميزان القوى لمن يسيطر عليه، حيث أفرغ سياسة خاصّة تجاه جغرافية المكان، فالجغرافيا ذات صلة قويّة مباشرة في إدراك مسيرة التاريخ، وتفسير أحداثه تفسيراً صحيحاً على جميع المحاور السياسيّة والاقتصاديّة والاستراتيجيّة والعسكريّة كافّة، فالمشرق العربي وسوريا الطبيعيّة والعراق جزء منه بموقعهما "الجيو ستراتيغي"، قد رُسمت خريطتهما وجغرافيّة أقاليمهما من قبّل السياسات والأطماع الاستعماريّة فيها^(٤).

(١) سعيد، أمين: الثورة العربيّة الكبرى، مصدر سابق، ص ٢١.

(٢) بينزو، أدِيث واني أيف: العراق دراسة في علاقاته الخارجيّة وتطوراته الداخليّة ١٩١٥ - ١٩٧٥، تر عبد المجيد حسيب القيسي، الدار العربيّة للموسوعات، بيروت، ط ١، ص ١٩٨٩، ج ١، ص ٢١.

(٣) سعيد، أمين: الثورة العربيّة الكبرى، مصدر سابق، ص ٢١.

(٤) السمك: مرجع سابق، ص ١٠٩ - ١١٠.

لقد كان الجوُّ يُنذرُ باشتعال نيران حرب عامّة، خصوصاً بعد أن اشتدّ التنافس الاستعماري بين البريطانيين والفرنسيين من جهة والألمان من الجهة الأخرى. بالإضافة إلى وجود خلافات روسية ونمساوية تجاه التنافس على مناطق استعمارية في شرق أوروبا (بلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا والمجر)^(١).

وفي عام ١٩١٤ بعثت وزارة الاتحاديين^(٢) أحمد جمال باشا^(*) إلى باريس لإجراء محادثات مع الحكومة الفرنسية من أجل عقد محالفة لتحسين العلاقات بين البلدين، لكنّ فرنسا وضعت شروطاً لعقد هذه المعاهدة من أبرزها: منح سوريا استقلالاً داخلياً يجعلها مستقلة استقلالاً تاماً عن بقية الممالك العثمانية، وأن تُطلق الدولة العثمانية يدّ فرنسا في بعض الامتيازات في سوريا وألا تعين الدولة حاكماً عسكرياً لسوريا إلا بعد موافقتها.. لكنّ جمال باشا رفض هذه الشروط وعاد إلى اسطنبول حاقداً على الفرنسيين.

(١) سعيد، أمين: سيرتي ومذكراتي السياسية، مصدر سابق، ص ٣٤ - ٣٥.
(٢) في مايو سنة ١٨٨٩ قام أربعة من طلاب كلية الطب في العاصمة العثمانية بتشكيل جمعية سرّية للعمل ضد الخلافة العثمانية حملت اسم الاتحاد والترقي (اتحاديّ عثمانيّ)، وأقامت صلاتٍ مع المعارضة التركية الناشطة في أوربا وانخرطت معها تحت اسم جمعية الاتحاد والترقي (المعروفة أكثر باسم لجنة الاتحاد والترقي) تحت رئاسة أحمد رضا الذي اتخذ من باريس مركزاً له وأصدر صحيفة (المشورت) الناطقة باسم الجمعية. وأقامت هذه الجمعية علاقات ودية مع اللجنة العثمانية - السورية التي ظهرت في باريس ١٨٩٥ تحت رئاسة أمين أرسلان ثم اندمجت الأخيرة بجمعية الاتحاد والترقي في باريس ١٨٩٦. وأقامت الجمعية علاقات مع جماعة المعارضة المقيمة في مصر للسلطان عبد الحميد. وضمت هذه الجمعية عرباً إلى جانب أعضاء أتراك وأكراد وألبان وروس إلى جانب أعراق أخرى. وقامت الجمعية بحركة انقلابية على السلطان العثماني، أُعلن على إثر نجاحها في اعلان الدستور في ١٠ جون ١٩٠٨. قايالي، حسن: الحركات القومية العربية بعيون عثمانية (١٩٠٨ - ١٩١٨)، ترجمة فاضل جكتر، دار قلم، دمشق، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٧٨ - ٧٩، ٨٣.

(*) أحمد جمال باشا (١٨٧٢ - ١٩٢٢): تخرّج من المدرسة الحربية، وانتمى إلى "حزب الاتحاد والترقي"، وقام بدور فعّال في تهيئة الانقلاب الدستوري الثاني سنة ١٩٠٨، فأصبح من أكثر رجال الحزب نفوذاً. عُيّن والياً عسكرياً في أضنة سنة ١٩٠٩، وبغداد سنة ١٩١١، وإسطنبول. ثم عُيّن وزيراً للبحرية، ولمّا نشبت الحرب العالمية الأولى، عُيّن قائداً للجيش الرابع، ووالياً عسكرياً في سوريا، وفي سوريا صبّ جام غضبه على الشعب بعد فشله في حملة السويس، فشكل محاكم عرفية في دمشق وبيروت، وأعدم عدداً من الشهداء العرب في (٦ مايو ١٩١٦)، منهماً باتصالهم بالحلفاء، ثم عاد إلى تركيا، ولمّا انتهت الحرب بخسارة ألمانيا وتركيا، هرب على باخرة ألمانية (مع طلعت وأنور)، وفي سنة (١٩٢٢) قتله شخص أرمني في العاصمة الجورجية "تفليس". صفوة، نجدت فتحي: الجزيرة في الوثائق البريطانية (١٩١٤ - ١٩٢٢)، دار الساقية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨، ص ٩٩.

وبينما كان النفوذ البريطاني والفرنسي يتقلص في العاصمة العثمانية، كان النفوذ الألماني يزداد قوةً فيها، حيث قدمت ألمانيا القروض، وقامت بإنشاء سكك حديدية، وأوفدت بعثة عسكرية إليها لتدريب الجيش العثماني^(١).

- البلاد العربية والدول الأوروبية (الأطماع البريطانية والفرنسية في المنطقة)^(٢):

تعود أولى بدايات التنافس الاستعماري بين البريطاني والفرنسيين على المنطقة العربية، إلى حملة نابليون بونابرت على مصر وسوريا^(٣) (١٧٩٨- ١٨٠١)، حيث أنهت ثلاثة قرون من العزلة المحليّة عن المشكلات الدولية. وكان

(١) المعلم، وليد: سورية / ١٩١٦ - ١٩٤٦ (الطريق إلى الحرية)، دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٨٨، ص ٣٣-٣٤.

(٢) كانت جمهورية البندقية في مقدمة الدول صاحبة النشاط التجاري في المشرق العربي بوجه عام في أوائل العصر العثماني، ولما فتح السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ عقد مع ممثلي البندقية في ١٤ فبراير منه معاهدة تجارية منحتهم الامتيازات التي تمتعوا بها في عهد سلاطين المماليك، وأهمها أن قنصل البندقية (المقيم في الإسكندرية) هو الذي يقضي في شؤون رعاياه ويفضّ منازعاتهم الشخصية و المالية طبقاً لقوانين البندقية، مع ضمان شروط خاصة بتسهيل رسو سفن البنادقة في الموانئ المصرية، وتعهّد البنادقة من ناحيتهم بأنّ رعايا السلطان سيكونون آمنين في موانئ البندقية ومدنها، ثم توسّعت الدولة العثمانية و جمهورية البندقية في تطبيق هذا النظام حين عقدت معاهدة بين الدولتين عام ١٥٢١ تقرّر بمقتضاها منح رعايا الجمهورية في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية امتيازات شبيهة بما كانت تحصل عليه الجمهورية من الدولة البيزنطية قبل سقوطها عام ١٤٥٢م. ياغي: العالم العربي في التاريخ الحديث، ص ١٧٩- ١٨٠. ولقد نتج عن تحوّل الطرق التجارية العالمية بسبب اكتشاف رأس الرجاء الصالح إعطاء العثمانيين امتيازاتٍ وعقد معاهدات مع دول غربية أخرى لتشجيعهم على التجارة معها. فواتيراس: مصدر سابق، ص ٢٧. ومن تلك الامتيازات هي التي أعطها السلطان سليمان القانوني لملك فرنسا فرانسوا الأول سنة ١٥٣٢. الحكيم، يوسف: سورية والعهد العثماني، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط ١، د ت، ص ٢٣. حيث استطاع الفرنسيون بموجب تلك الامتيازات السيطرة على تجارة الشرق الأدنى، وحيث وجبّ على جميع السفن الأجنبية التي تُنجر في تلك المنطقة رفع العلم الفرنسي. وأصبحت فرنسا بعد حامية لجميع المواطنين الأوربيين الموجودين في المشرق العربي. العريضي: المرجع سابق، ص ١٥٠. ومن بعدها حصلت بريطانيا على معاهدة عام ١٨٣٨ التي منحتها امتيازات تجارية في الدولة العثمانية. ثم تجتهدتا دول غربية أخرى مثل البرازيل وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية. السباعي، بدر الدين: أضواء على الرأسمال الأجنبي في سوريا / ١٨٥٠ - ١٩٥٨، دار الجماهير، دمشق، ط ١، ١٩٦٧، ص ٧.

(٣) سلطان، علي: تاريخ سورية / ١٩٠٨ - ١٩١٨، نهاية الحم العثماني، دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٨٧، ص ٢٠٩.

هدفها قطع طريق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند والشرق الأقصى، واحتلال المنطقة العربية والتمتع بخيراتها وثرواتها^(١). لكنّ الحملة فشلت، بسبب تدمير الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية من قبل الأسطول البريطاني^(٢)، ومن ثمّ فشلت الحملة أمام أسوار عكا، ومحاصرة السفن البريطانية والعثمانية للفرنسيين، من البحرين المتوسط والأحمر، ومن البرّ^(٣).

ولكنّ التدخّل الأجنبي ازداد في المنطقة العربية خصوصاً بعد انسحاب محمد علي باشا من بلاد الشام سنة ١٨٤٠ بضغط أوربي^(٤)، وبعد تضخّم الإنتاج في أوروبا، وبحثها عن المصادر الخامّ وأسواق لتصدير منتجاتها، وازدياد المنافسة فيما بينها. ووجدت تلك الدول في النزاعات الطائفية- والتي أسهمت في تأجيج نيرانها- مجالاً رحباً للتدخّل في المنطقة، ولتحقيق أهدافها فيها، فدعمت كلّ دولة طائفة معينة^(٥). ثمّ قامت قوّات فرنسية باحتلال منطقة جبل لبنان لمُدّة مؤقتة تحت مُسمّى إيقاف الحرب الطائفية^(٦) التي حدثت في لبنان^(٧) سنة ١٨٦٠^(٨)،

(١) رافق، عبد الكريم: تاريخ المشرق العربي في العهد العثماني، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ط ٦، ١٩٩٨، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٢) سلطان: المرجع السابق.

(٣) رافق: المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(٤) طربين، أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق، دمشق، د ط، ١٩٩٢، مرجع سابق، ص ٨٠-١٠٢.

(٥) رافق: مرجع سابق، ص ٣١١. حيث أيد البريطانيون الدروز، والفرنسيين الموارنة، واستغلّ العثمانيون الوضع لإعادة سلطتهم على الجبل. المرجع نفسه، ص ٣١٣.

(٦) المرجع نفسه.

(٧) كانت حوادث لبنان ثمرة للتدخّل الأجنبي الأوربي المباشر في بلاد الشام، ودفع الشعب وأبناء طوائفه دماءهم رخيصة، في ظلّ فتن وحروب لا شأن لهم بها، جرّهم إليها صراع الدول الأوربية الاستعماري. وقد بدأت الفتنة في عام ١٨٥٦ وكان صراعاً عاماً، ما بين النصاري أنفسهم كالكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت، (كان صراع هذه الطوائف يمثل صراع الدول المحرّضة لها)، وما بين المسلمين المؤيدين من الدولة العثمانية. وهذا ما بيّنه جدول أعمال اللجنة الدولية في بيروت الذي بيّن تحريض الدول الأوربية للحرب الطائفية في لبنان، حيث وقف الروس يدافعون عن الأرثوذكس، والفرنسيون عن الموارنة والكاثوليك، والبريطانيون عن الدروز والبروتستانت واليهود. ودافعت الدولة العثمانية عن المسلمين ضمناً. وامتدّ صدى هذه الحرب إلى دمشق فذهب فيها عدد من القتلى وكادت أن تتحوّل إلى حرب أهلية فيها لولا تدخّل العقلاء في دمشق من أمثال الأمير عبد القادر الجزائري. أباكار يوس، اسكندر بن يعقوب: نواذر الزمان في وقائع جبل لبنان، المقدمة، تح عبد الكريم إبراهيم السمك، رياض الرئيس للكتب والنشر، لندن، ط ١، ١٩٨٧، ص ٤٥-٤٦، ٦٤.

(٨) يتكلم المؤرّخ المعاصر "اسكندر بن يعقوب أباكار يوس" اللبناني (الأرمني الأصل) عن نزول القوّات الفرنسية الساحل اللبناني ودخول الجيش العثماني بلاد الشام - وكان الكاتب معاصراً للحدث- ما يلي: "في اليوم السادس عشر من شهر آب أقبلت إلى بيروت (البوارج) الفرنسية. بالعساكر والمهمات الحربية. وكان المُقَمَّم عليها الجنرال بوفور... ونزل ضبّاطهم حول المدينة. وباقي العسكر نزل بالقرب منها في حرش الصنوبر. ونصبوا هناك خيامهم... وكانوا نحو ثمانية آلاف. منها نحو ستة آلاف مقاتل من عامّة العسكر.

والتي هي أشعلتها. ولكن بريطانيا تدخلت عن طريق عقد اتفاقية باريس ٣ آب ١٨٦٠ حدّدت بموجبها بقاء القوّات الفرنسية في منطقة جبل لبنان لمُدّة ستة أشهر تحت مُسمّى "لجنة دولية" لاستتباب الأمن في الجبل.

واقتربت بريطانيا من المنطقة باستيلائها على قبرص ١٨٧٨، حيث تنازلت الدولة العثمانية لها عن الجزيرة مقابل دعم الأخيرة للعثمانيين ضدّ الأطماع الروسية في أراضيها، ثمّ احتلت بريطانيا مصر ١٨٨٢، وأخذت تهتمّ بالمشرق العربي أكثر فأكثر، عقب توقّعها بقرب نهاية الإمبراطورية العثمانية، في الوقت الذي احتلت فيه فرنسا الجزائر وتونس. ورغم الاتّفاق الودّي^(١) بين بريطانيا وفرنسا في ٨ نيسان ١٩٠٤^(٢)، فإنّ الصراع تجاه المنطقة بقي محرّكاً لكلا الدولتين حتى الحرب العالمية الأولى^(٣).

ونحو ألفين من الأتباع والخدم والصنّاع المختصّين لحمل الأثقال ورفع الأحمال الثقال، وأمّا فؤاد باشا [والي العثمانيين الجديد على بلاد الشام وقائد القوّات العثمانية] فإنّه عند وصوله دمشق قبض على واليها أحمد باشا ونزع عنه السيف والعلامة السلطانية. ووضعه تحت الترسيم وكتب في شأنه إلى الدولة العثمانية العليا. وفي ذلك الوقت أمر بحبس طاهر باشا وكاخيا خورشيد باشا وأحمد أفندي السلاح وقائم مقام بيت الدين ومتسلّم دير القمر. فقبضوا عليهم جميعاً في بيروت وحبسوهم في قسلة العسكر. وأمّا جهلة الإسلام [مثيري الفتنة] فاضربوا عند قدوم دولته وصاروا يتهاربون. حتى لحق أكثر الهاربين حوران وجبل عجلون. وكان قد أمسك عليهم كلّ باب وطريق. فقبض على مقدار ألف نفر منهم وألقاهم في السجن ليقيم عليهم ديوان تحقيق. وكان قد أمر بحبس عثمان بك متسلّم حاصبيا ومحمّد آغا متسلّم راشيا... وعلى جماعة من الضبّاط والأنفار الذين وقعت عليهم الشبهة في ارتكاب الخيانة المبيّنة. فأمر بقتل أحمد باشا وقتلهم بالرصاص في قلعة دمشق. وقتل الذين تحقّق عليهم الذنب من الأهالي بالشنق... وأمّا النصارى فإذا كان لم يبق لهم بيوت. استأذنوا من دولته بالرحيل إلى بيروت. فأذن لهم وحضر منهم عيال كثيرة على مصروف الدولة العلية^(١). المصدر نفسه.

(١) سلطان: تاريخ سورية / ١٩٠٨ - ١٩١٨، ص ٢١١.

(٢) بعد فشل المحادثات البريطانية-الألمانية حول تحديد التسلّح البحري في عام ١٨٩٩ (بسبب ازدياد خطر الأسطول الألماني)، وبعد شعور بريطانيا بخطر التنافس الاقتصادي الألماني للاقتصاد البريطاني في أوروبا والعالم. أدّى بها إلى التقارب بينها وبين الدول الاستعمارية الأخرى وخصوصاً فرنسا والتي كانت بينهما العديد من المشاكل المعلقة وخصوصاً في مصر حيث كانت بريطانيا قد بسطت نفوذها على هذا البلد واحتلته عسكرياً في عام ١٨٨٢، كما بسطت نفوذها على أعالي نهر النيل وأجبرت فرنسا على سحب حاميتها من منطقة فاشودا في تشرين الثاني ١٨٩٨. فتمّ في ٨ نيسان ١٩٠٤ عقد اتّفاق بين كلا الدولتين من أجل تصفية القضايا الاستعمارية المعلقة بينهما حيث وقّعا الاتّفاق الودّي (**Entente Cordiale**) بينهما. هذا الاتّفاق الذي تخلّت نتيجة له فرنسا عن كلّ مطالبها في مصر وأعالي النيل، كما اعترفت لبريطانيا باحتلال قبرص الذي تمّ في عام ١٨٧٦. من ناحيتها بريطانيا اعترفت لفرنسا بالحقّ في بسط حمايتها على المغرب الأقصى. كما سوّيت بعض المشكلات الاستعمارية الثانوية الشائكة: كتعديل الحدود بين المستعمرات البريطانية الفرنسية في أفريقيا السوداء، وفي سيام "تايلندا" و جزيرة مدغشقر وفي جزر هبريد الجديدة، و بنيفوندلاند. الصطوف، عبد الكافي: دراسات في تاريخ أوروبا والولايات المتّحدة المعاصر (من مؤتمر فيينا ١٨١٤ - ١٨١٥ لى نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥)، مطبعة اليمامة، حمص، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٦٧.

(٣) سلطان: تاريخ سورية / ١٩٠٨ - ١٩١٨، ص ٢١١.

ولابدّ من الحديث عن بروز الأطماع الألمانية في المنطقة، بعد إكمال وحدتها سنة ١٨٧٠، حيث زار الإمبراطور الألماني غليوم الثاني الدولة العثمانية مرتين وزار دمشق وألقى فيها خطاباً في ٨ تشرين الثاني ١٨٩٨ جاء فيه قوله: "وليوقن صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني.. والثلاثمائة مليون من المسلمين المرتبطين بمقام خلافته... أن إمبراطور ألمانيا سيبقى مُحبباً لهم إلى الأبد". ثمّ حصلت ألمانيا على امتياز مرفأ حيدر باشا في بحر مرمره^(١)، ومدّ سكة حديد برلين بغداد في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٣^(٢)، وأصبحت ألمانيا هي المستفيد الأقوى في المنطقة ومنافسة للوجود البريطاني في العراق ومنطقة الخليج العربي^(٣).

وإلى جانب التدخّل في المجالات السياسية والاقتصادية في البلاد العربية، فقد نشطت الإرساليات التبشيرية الغربية في فتح المدارس ونشر الثقافة الغربية. وكانت أولى الإرساليات التي قامت بنشاط ديني في بلاد الشام هي الكاثوليكية^(٤) (الفرنسية)^(٥) في القرن السادس عشر، وكان هدفها نشر الكاثوليكية بين أتباع المذاهب المسيحية الأخرى، وتنظيم الموارد في سوريا وربطهم بروما^(٦). وإضافةً إلى التأثير الفرنسي من الناحية الدينية كان التأثير الثقافي الفرنسي واضحاً للعيان، وخاصّة في لبنان. وكانت تلك الإرساليات تفتح المدارس والمؤسسات الثقافية، وكان أهمّها مدرسة بيروت ١٨٣٩، وغزير ١٨٤٣، وزحلة ١٨٤٤، ودمشق ١٨٧٢، وحلب ١٨٧٣، وتوجت أعمالها بنقل مدرسة الغزير إلى بيروت لتُسمّى جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٥^(٧). وقد تفوّقت هذه المؤسسات الفرنسية على المؤسسات الغربية الأخرى، حيث كان لها سنة ١٩١٠ أكثر من مئة مدرسة، يتعلّم فيها أكثر من عشرة آلاف طالب^(٨).

(١) رافق: مرجع سابق، ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) سلطان: المرجع السابق، ص ٢١١.

(٣) Fitzsimos, M. A.: Empire BY Treaty: Britain and the Middle East in the Twentieth Century, University of Notre Dame Press, Indiana, 1964, p 19.

(٤) رافق: المرجع السابق، ص ٣١٨.

(٥) سلطان: المرجع السابق، ص ٢١٣.

(٦) رافق: المرجع السابق.

(٧) أنطونيوس: مصدر سابق، ص ١٠٨.

(٨) سلطان: مرجع سابق، ص ٢١٦.

وأيضاً وصلت الإرساليات التابعة لكنيسة المشيخية (البروتستانتية) الأمريكية إلى المنطقة عام ١٨٢٠^(١)، وظهر نشاطها في الطباعة والتعليم، وفي تأسيس مطبعة بيروت ١٨٣٤ (التي نُقلت من مالطة)^(٢)، وفي افتتاح المدارس في كلِّ من بيروت والقدس وجبل لبنان، وافتتاح معهد "عبية" لإعداد المدرّسين، وتُوّجت هذه الأعمال بافتتاح الكلية البروتستانتية السورية في بيروت سنة ١٨٦٦^(٣).

ثمَّ ظهرت إرساليات إنجليزية وألمانيا وروسية، ولكنها لم ترقى إلى مستوى الإرساليات الأمريكية واليسوعية الفرنسية، وفُتحت المدارس أمام المسلمين والمسيحيين على حدِّ سواء ن أجل نشر الثقافة الغربية والتمهيد لتنفيذ خططها المبيتة ضد الدولة العثمانية^(٤).

وبعد الحرب البلقانية ١٩١٢ - ١٩١٣، قرّرت الدولة العثمانية الدخول في مفاوضات مع الدول الأوروبية لحسم المسائل المُعلّقة فيما بينها والاعتراف بمطالب هذه الدول والقبول بنفوذها الاقتصادي، مقابل تعديل نظام الامتيازات ورفع التعرفة الجمركية في الدولة العثمانية على البضائع الأجنبية إلى ١٥%.

ومن المطالب الفرنسية التي قدّمتها في تلك المفاوضات سنة ١٩١٣، فتح الدور والمدارس الفرنسية والمساواة بين هذه المدارس والمدارس الحكومية، وإعطاء امتياز بإنشاء خطوط حديدية في الولايات العربية الشرقية، وإنشاء مرافئ على البحر الأسود وشرق المتوسط. و كما أن ألمانيا نصحت صديقتها الدولة العثمانية بالتفاهم مع فرنسا لحاجتها إليها في القضايا المالية، لأنَّ ألمانيا عاجزة عن مساعدتها من هذه الناحية، فقبلت الدولة العثمانية لحاجتها إلى المال بعد انتهاء حرب البلقان و التي أصابها بالإفلاس؛ فتمَّ عقد اتفاق مع فرنسا يتضمّن منحها امتيازات مدّ سكك الحديد في المنطقة المذكورة، و اتفاقية أخرى ٩ أبريل ١٩١٤ تعهّدت فرنسا فيها بأن تُقدّم للدولة مساعدتها الخاصّة فيما يتعلّق بالنهوض باقتصاد البلاد و ماليّتها، و تعديل نظام الامتيازات بما يتوافق مع مطالب الدولة العثمانية.

(١) أنطونيوس: المصدر السابق، ص ٩٨.

(٢) رافق: مرجع سابق، ص ٣١٩.

(٣) أنطونيوس: المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٤) رافق: المرجع السابق، ص ٣١٩.

أما مطالب بريطانيا فكانت متعلّقة بمسألة سكة حديد بغداد، حيث كانت تطالب بامتياز مدّ السكة من بغداد إلى البصرة، و قد اعترفت لها الدولة العثمانية بذلك باتفاقية ٩ آذار ١٩١٤ التي تمّت بينهما، ثمّ أتت بها اتفاقية وُقعت بين بريطانيا و ألمانيا ١٥ حزيران ١٩١٤ اعترفت فيها الأولى للثانية بأهميّة سكة خط حديد بغداد للتجارة العالمية، وصرّحت ألمانيا بأنّها سوف تضمن قبول عضوين إنكليزيين تعتمدهما حكومتها كمثلين لحملة الأسهم البريطانية في إدارة الشركة، لكنّ نشوب الحرب العالميّة الأولى قد أوقف مفعول هذه الاتفاقيات التي تمّت بين هذه الدول^(١).

العرب والاتحاديّون:

في أيّار سنة ١٨٨٩ قام أربعة من طلاب كليّة الطب^(٢) في العاصمة العثمانية بتشكيل جمعيّة سرّيّة للعمل ضدّ الخلافة العثمانية^(٣) حملت اسم الاتحاد والترقيّ (اتحاديّ عثمانيّ)، وأقامت صلاتٍ مع المعارضة التركية الناشطة في أوربا وانخرطت معها تحت اسم جمعيّة الاتّحاد والترقيّ (المعروفة أكثر باسم لجنة الاتّحاد والترقيّ) تحت رئاسة أحمد رضا^(٤) الذي اتخذ من باريس مركزاً له وأصدر صحيفة (المشورت) الناطقة باسم الجمعيّة. وأقامت هذه الجمعيّة علاقات وديّة مع اللّجنة العثمانية - السورية التي ظهرت في باريس ١٨٩٥ تحت رئاسة أمين أرسلان^(٥) ثمّ اندمجت الأخيرة بجمعيّة الاتّحاد والترقيّ في باريس ١٨٩٦. وأقامت الجمعيّة علاقات مع جماعة المعارضة المقيمة في مصر للسلطان

(١) بزّو، توفيق: العرب الترك في العهد الدستوري ١٩٠٨-١٩١٤، دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٦٢-٤٦٦.

(٢) وهم: إبراهيم تيمو واسحق سكوتي ومحمد رشيد وعبد الله جودت. كلشي، حسن: الوجه الآخر للاتحاد والترقيّ، تر محمد الأرنؤوط، قدسية للنشر والتوزيع، أربد (الأردن)، ط ١، ١٩٩٠، ص ٢٢.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) أحمد رضا: مدير معارف "بروسا" سابقاً، زار فرنسا في الذكرى المئوية الأولى للثورة الفرنسية و سُمح له في الإقامة في فرنسا، فقرّر أن يبقى فيها يعمل في سبيل حرية بلاده، أصدر في نهاية ١٨٩٥ جريدة (المشورت) بالتعاون مع الشبان الموجودون في باريس. ثمّ جرى اتصال بين الجمعيّة السرية في الأستانة وبين جماعة أحمد رضا، وتقرّر أن تندمج الجماعتان في (جمعيّة الاتّحاد والترقيّ). طريين: مرجع سابق، ص ٢٨٤.

(٥) أمين أرسلان (١٨٨٣-١٩٤٣): ولد في الشويفات بلبنان، أصدر جريدة "كشف النقاب" وشارك خليل غانم في إصدار جريدة "تركيّا الفتاة" عُيّن قنصلاً في بروكسل في عهد السلطان (عبد الحميد الثاني)، وعُيّن قنصلاً في بيونس أيرس في الأرجنتي، وأصدر هناك جريدة "السمير" وله عدّة مؤلّفات. الزركلي: مصدر سابق، ج ١، ص ١٣٥-١٣٦.

عبد الحميد. وضمت هذه الجمعية عرباً إلى جانب أعضاء أتراك وأكراد وألبان وروس إلى جانب أعراق أخرى^(١).

وقامت الجمعية بحركة انقلابية^(٢) على السلطان العثماني، أُعلن على إثر نجاحها في اعلان الدستور في ١٠ تموز ١٩٠٨^(٣).

لكن في ١٣ آذار ١٩٠٩ حدثت ثورة معاكسة نظمتها القوى المعادية للسلطان عبد الحميد في العاصمة واستطاعت أن تخدع السلطان عبد الحميد وتعيده إلى سيادة الحكم ظاهرياً، ثم قامت جمعية الاتحاد والترقي بالقضاء على هذه الثورة بمساعدة الجيش الثالث في منطقة سلانيك الموالي لها بعد تسعة أشهر من هذه الحادثة، حيث أدت إلى خلع السلطان عبد الحميد نهائياً عن العرش، وتتصيب أخيه محمد رشاد الذي دام حكمه من ١٩٠٩ إلى ١٩١٨^(٤).

وبعد خلع السلطان عبد الحميد واعتلاء محمد رشاد العرش، أخذت الحكومة الجديدة تدير البلاد تحت سيادة الدستور، وفي ٥ أيار ١٩٠٩ صدر تعديل هام لبعض أحكام قوانين الدولة، استمدت من القوانين الأوروبية وخاصة القوانين الفرنسية^(٥). ولكن سياسة الاتحاديين لم تلبث أن أظهرت عن وجهها الحقيقي، إذ اعتقدت أن تجديد الدولة لا يتم إلا بالتمسك بالقومية التركية والتعصب لها. لذلك حاولت فرض سياسة التتريك على البلاد الخاضعة لحكمهم، ومنها العربية، وصهر كافة القوميات في البوتقة التركية^(٦).

(١) قايالي، حسن: الحركات القومية العربية بعيون عثمانية (١٩٠٨-١٩١٨)، تر فاضل جكتر، دار قدمس، دمشق، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٧٨-٧٩، ٨٣.

(٢) إسماعيل، حلمي محروس: تاريخ العرب الحديث والمعاصر (من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ط، ١٩٩٧، ص ٣٣٧.

(٣) برو: مرجع سابق، ص ٨١.

(٤) قايالي: المرجع السابق، ص ١١٩-١٢١.

(٥) إسماعيل: مرجع سابق، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٦) المرجع نفسه، ص ٣٤٣. ويشير أمين سعيد إلى أن الأتراك الطورانيين، كانوا ثلاثة فئات: الفئة الأولى: تقول بمنح العرب استقلالاً ذاتياً داخل الإمبراطورية العثمانية، ومن هذه الفئة: (أنور باشا والصدر الأعظم سعيد حلمي باشا). الفئة الثانية: فئة الطورانيين الغلاة، والذين يقولون بأخذ العرب بالشدة، وتتركهم وقتل زعمائهم، ومن هذه الفئة (أحمد جمال باشا وحسين جاهد بك صاحب جريدة (طنين) الطورانية وأحمد رضا بك). الفئة الثالثة: فريق المعتدلين وهم أقلية والفائزين بالتساؤل مع العرب ومنحهم إدارة لا مركزية بنوعية جيدة ومنهم (طلعت باشا). الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٥٨-٥٩.

وجد بعض رجالات النزعة القومية العرب ضرورة توحيد آرائهم ومطالبهم في عقد مؤتمر عربي خارج الدولة العثمانية^(١). ووقع اختياريهم على العاصمة الفرنسية باريس، وخاصّة أنّ فيها ثلاثمائة شخص ينتمي أغلبهم لجمعية العربية الفتاة، وتعود فكرة المؤتمر إلى بعض أعضاء تلك الجمعية الفتاة^(٢)، حيث شكّلت لجنة منهم لتنظيم المؤتمر، وراسلت هذه اللجنة حزب اللامركزية في مصر عارضة عليه أن يكون المؤتمر برئاسة أحد مندوبيه^(٣).

وأعلن أنّه سيتمّ في المؤتمر مناقشة الأمور التالية:

١. الوجود العربي القومي ومعارضتهم للاحتلال الأجنبيّ.
 ٢. حقوق العرب ضمن الإمبراطورية العثمانية.
 ٣. ضرورة العمل على أساس اللامركزية.
 ٤. الهجرة من سوريا وإليها^(٤).
- حضر المؤتمر ممثلون عن الجمعيات العربية في سوريا والعراق، وممثلون عن الجاليات العربية في أوروبا وأمريكا، وعدد كبير من الشخصيات العربية من معظم الأقطار العربية^(٥).

عُقد المؤتمر في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية في باريس من ١٨ إلى ٢٣ حزيران ١٩١٣، وقد اتخذ المؤتمر عدّة أمور أهمّها:

١. تطبيق الإدارة اللامركزية في الولايات العربية داخل الدولة العثمانية.
٢. ضمان حقوق العرب السياسية وإشراكهم في الإدارة المركزية للدولة العثمانية.
٣. جعل اللّغة العربية اللّغة الرسميّة في البلاد العربية.

(١) رافق: مرجع سابق، ص ٣٨٥.

(٢) وهم عبد الغني العريسي، جميل مردم بك، عوني عبد الهادي ومحمد المحمصاني. المرجع نفسه.

(٣) الريماوي، سهيلة: صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨ - ١٩١٨ (حزب اللامركزية الإدارية العثماني)، (مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، كانون الثاني/ أيار ١٩٨٤)، جامعة دمشق، دمشق، ص ١٨٥. والخطيب: مصدر سابق، ص ٥٥.

(٤) قايالي: مرجع سابق، ص ٢٠٦.

(٥) لم يحضر المؤتمر ممثلون عن المغرب العربي ولا عن مصر، لمنع سلطات الاحتلال فيهما للعرب من حضوره. سلطان: تاريخ سورية سنة / ١٩٠٨ - ١٩١٨، ص ٩١ - ٩٣.

٤. قصر الخدمة العسكرية للمجندين العرب في الولايات العربية^(١).

هنا أرسلت حكومة الاتحاديين سكرتيرهم^(٢) إلى باريس، من أجل الاتفاق مع جماعة الفتاة لحلّ الخلافات المُشكّلة فيما بينهم كي يفشلوا تلك المؤامرة الغربية^(٣).

وفي ١٨ آب ١٩١٣ صدر مرسوم سلطاني يتضمّن الموافقة على قرارات المؤتمر، وتعيين عبد الحميد الزهراوي^(٤) (رئيس مؤتمر باريس) عضواً في مجلس الأعيان، وعيّنوا بعض شبّان العرب في بعض المناصب الهامّة.

أمّا الإصلاحات التي أعلنت عنها الاتحاديون حسب بنود المرسوم فلم يُنفذ أيّ منها، بل لجأت الدولة إلى التسوية والمُطاطلة، من أجل القضاء على قادة النزعة القومية الواحد تلو الآخر، وإفشال المساعي الرامية لتحقيق مطالبهم غير أنّ ذلك لم يدم طويلاً، بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى والتحوّلات التي حدثت في المنطقة العربية^(٥).

(١) سعيد: الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٣٦.

(٢) وهو مدحت شكري بك. إسماعيل: مرجع سابق، ص ٣٤٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٤٨ - ٣٤٩. وطربين: مرجع سابق، ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٤) يُبزر الزهراوي بقبوله المنصب، بأنّه ربّما يستطيع تحسين العلاقات بين العرب والاتحاديين ويقنع الاتحاديين باتباع سياسة تشمل على قسط أوفر من الحرّية للعرب. المصدر نفسه، ص ١٩٥.

(٥) إسماعيل: مرجع سابق، ص ٣٥٠. يذكر رشيد رضا في مقالة كتبها عن "الإصلاح و الاتفاق بين الاتحاديين و العرب" الأسباب التي أدت إلى فشل هذا الاتفاق، فيقول: "أبطأت الحكومة [العثمانية] في التصديق على الاتفاق فساءت الظنون، و لمّا كانت أمثال هذه الأمور لا تخفى في جملتها و إن خفي بعض تفاصيلها، أذاعت شركة رويتر [وكالة رويترز] برقية قالت فيها إنّ الحكومة وافقت العرب على ما يطلبون من الإصلاح رسمياً و سيعيّن [عبد الحميد] الزهراوي (رئيس المؤتمر) شيخاً للإسلام، و الشريف علي حيدر رئيساً لشورى الدولة، ففرحت القلوب و سارع رفيق بك العظم رئيس حزب اللامركزية إلى نشر مواد الاتفاق ظناً منه أنّه لم يبق مانع من نشرها و قد قررتها حكومة الباب العالي رسمياً. وأرسل برقية شكر إلى الصدر الأعظم وعدّ فيها بأن سيرسل الحزب وفداً إلى الأستانة لأداء الشكر للحكومة فيها - ولكن تبين بعد ذلك أنّ كلّ هذا كان قبل أوانه، وأنّ برقية رويتر كاذبة. وقد ساء الاتحاديون نشر صورة الاتفاق وحقّ لهم ذلك، وهاج عليهم أنصارهم الذين طعنوا في رجال المؤتمر وجميع طلاب الإصلاح لأجلهم، فلهذا السبب ولأسباب أخرى كذّبت جريدة طنين ما نشر في الأستانة وغيرها من خير الاتفاق، ونشرت جمعية الاتحاد بياناً من مركزها العامّ فيما عزمت عليه الحكومة من الإصلاح في الولايات العربية وغيرها وزعمت أنّها عزمت على ذلك من تلقاء نفسها، أيّ لا إجابة لطلب أحد، وفي البلاغ تعريض بدم أناس مُبهمين و صفوا بالفساد. فكان هذا وذاك سبباً لإساءة الطنّ بالحكومة تبعاً لإساءة الطنّ بالجمعية، وسرى سوء الظنّ إلى عبد الكريم أفندي [الخليل]". رضا: سوء الظنّ بالحكومة والجمعية، مجلّة المنار (٢٩ شعبان ١٣٣١ - ٢ آب ١٩١٣)، مج ١٦، ج ٨، ص ٦٣٧.

المبحث الثاني:

دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى:

كانت الدولة العثمانية قبيل اندلاع الحرب تحت سيطرة الاتحاديين - أي حزب الاتحاد والترقي، فكان على رأس الاتحاديين أنور باشا(*) وزير الحربية وأعظم رجال الدولة نفوذاً. ويليهِ في النفوذ طلعت باشا(*) وزير الداخلية الذي صار بعد رئيس الوزراء. ثم يأتي في الدرجة الثالثة جمال باشا وزير الحربية. أمّا رئيس الوزراء سعيد حليم باشا والوزراء الآخرون فكانوا أمام هؤلاء الثلاثة ضعافاً ليس لهم من القوة والنفوذ إلا قليلاً^(١).

درست وزارة الاتحاديين الموقف الدولي، وخرجت بنتيجة تقضي بالتحالف مع ألمانيا والتعاون معها في أيّ حرب تقع، حيث قالوا بأنّ مصير الدولة العثمانية محتوم بالحرب لأنّ الدول الاستعمارية (بريطانيا فرنسا روسيا) إذا انتصرت في تلك الحرب فكلّ منها مطامع في أراضي الدولة. بينما إذا ربحت ألمانيا الحرب، عندئذ يقوى عَضُد الدولة وتستردّ الأراضي التي سُلِبَت منها من قبل تلك الدول^(٢).

ولمّا نشبت الحرب العالمية الأولى في أول أغسطس سنة ١٩١٤ بادرت الدولة العثمانية إلى إعلان الحياد في البدء، ولكنّها أعلنت التعبئة العامّة لصيانة هذا الحياد من كلّ اعتداء خارجي^(١)، وقامت بإنهاء الحكم المدني بإعلانها وضع البلاد كلّها

(*) أنور باشا (١٨٨١ - ١٩٢٢): من أقوى رجال حزب الاتحاد والترقي، تخرّج في المدرسة الحربية وخاض غمار السياسة في سنّ مبكرة، ترأس عصابة اعتصمت بالجبال، وأعلن العصيان على حكم السلطان عبد الحميد، وأنزله على إعلان الدستور بعد حكم السلطان عبد الحميد الذي دام ٣٣ سنة. عاد إلى اسطنبول في انقلاب سنة ١٩٠٨ محمولاً على الأكتاف كبطل قومي، فأصبح وزيراً للحربية في سنة ١٩١٣، وتزوَّج إحدى الأميرات. وكان أنور هو الشخص المباشر الذي زجّ تركيا في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، وبعد انتهاء الحرب، غادر تركيا سرّاً في ١٩١٨ مع طلعت ومال، وقُتل في بخارى في الثانية والأربعين من عمره. صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٨.

(*) طلعت باشا (١٨٧٤ - ١٩٢١): آخر رئيس للوزراء في عهد الاتحاديين، والشخص الذي تحكّم في مقاليد الأمور في تركيا لعدة سنوات، ولد في (أدرنة) وتدرّج في وظائف الدولة وبعد انقلاب المشروطية أصبح نائباً في مجلس المبعوثان، وفي سنة ١٩٠٩ عُيّن وزيراً للبريد والبرق في عدّة وزارات، وعلى إثر استقالة سعيد حليم باشا رئيس الحكومة سنة ١٩١٦ عُيّن صدراً أعظم، ولمّا عُقدت الهدنة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى هرب إلى أوربا مع أنور وجمال، وفي سنة ١٩٢١ اغتاله شابٌّ أرمني في برلين. صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٨.

(١) الوردى: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، بيت الوراق للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ٢٠١٠، ج ٤، ص ١٩.

(٢) سعيد، أمين: سيرتي ومذكراتي السياسية، مصدر سابق، ص ٣٥.

(١) بزّو: مرجع سابق، ص ٤٩٣.

تحت الحكم العسكري^(٢). وكانت قبل ذلك قد قامت بتوقيع معاهدة دفاعية سرّية مع ألمانيا^(٣) ضدّ روسيا في ٢ أغسطس ١٩١٤، نصّت على وقوف الدولتين جانب الحياد تجاه الخلاف الناشب في ذلك الوقت بين الصرب والنمسا^(٤) (إثر مقتل وريث العرش النمساوي من قبل أحد أعضاء اليد السوداء الصربية في العاصمة البوسنة)^(٥)، وأمّا في حالة وقوع تدخّل حربي روسي فإنّ ذلك يُشكّل اعتداءً ضدّ ألمانيا، ويُعدّ هذا التدخّل مُوجّهًا ضدّ الدولة العثمانية أيضاً. وهذا ما وقع، حيث أُعلنت الحرب بين روسيا وألمانيا وعلى إثر ذلك دخلت الدولة العثمانية الحرب بموجب المعاهدة السابقة^(٦).

—

(٢) سعيد، أمين: سيرتي ومذكراتي السياسية، مصدر سابق، ص ٣٧.

(٣) وقفت تركيا إلى جانب ألمانيا لأنّ كلّ بريطانيا وفرنسا لم يوافقا على حلّ مسألة الجزر في البحر الإيجي بين تركيا واليونان. وقد قصد جمال باشا باريس يومها وعلم أنّ دول الحلفاء لا ترغب في الاتّفاق مع تركيا. ولقد كان مقصد تركيا من الوقوف إلى جانب ألمانيا، عدّة أسباب منها حفظ مضائق البوسفور والدرديل من استيلاء روسيا عليها، وكذلك أهمّية ألمانيا والنمسا في موقعهما الأوربي الاستراتيجي المجاور للدولة العثمانية. سعيد: المصدر السابق، الحاشية، ص ٦٤.

(٤) بزّو: مرجع سابق، ص ٤٩٤ - ٤٩٥.

(٥) السبب المباشر الذي أشعل نيران الحرب العالمية الأولى هو حادثة اغتيال ولي عهد النمسا "فرانز فروديناند" في ٢٨ جون ١٩١٤ على يد طالب صربي يُدعى "رجيفر يبلو يرنسيب" في ساراجيفو عاصمة البوسنة، ولقد وجدت إمبراطورية النمسا - هنغاريا في ذلك الحادث ذريعة للتوسّع في البلقان. أبو الحسن، علي: دور بريطانيا في تهويد فلسطين، دار الوحدة العربية، ط ١، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٥٥.

(٦) بزّو: مرجع سابق، ص ٤٩٤ - ٤٩٥.